

حركة التعليم في الجزائر المحروسة بين 1500-1830.

د. رموم محفوظ

جامعة أدرار

الملخص: تكمن أهمية الموضوع، في كونه يعالج مسألة هامة، في ميدان حيوي هو التاريخ الثقافي للجزائر، الذي يهتم بكل ما يتعلق ببناء الشخصية الجزائرية، ومختلف المؤثرات الحضارية التي تعرض لها، من خلال رصد واقع حركة التعليم بين 1518-1830. سنحاول في هذا المقال تتبع مظاهر الحركة العلمية في الجزائر، من خلال الحديث عن المؤسسات التعليمية ومناهج التدريس والمقررات الدراسية، وأهم الإنتاج المعرفي للنخب الجزائرية، بهدف وضع القارئ في صورة التعليم في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي.

Résumé:

La présente étude est une approche sur l'histoire culturel de l'Algérie, et les différentes influences à travers le mouvement d'enseignement en Algérie entre 1518-1830: l'article comprend des sous chapitre sur le rôle de la propagation d'enseignement, les méthodes, les élites, et le fondement des établissements culturels et du Wakfs en Algérie à l'époque

مقدمة: إن الانتشار الواسع لمؤسسات التعليم الأولي (المساجد والزوايا) في الجزائر قبل 1830م، ساهم في محو الأمية، وانتشار القراءة والكتابة- على بساطة المستوى- إلا أن الظاهرة الاستعمارية التي تعرضت لها المنطقة كانت وراء كارثة التجهيل، التي أصبح الجزائري عرضة لها، حيث تعرض المجتمع الجزائري للاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وكان ذلك بداية لمرحلة جديدة، اتسمت إجمالاً بتفكيك بناء السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وتوضع بنى جديدة اتسمت بطابع استعماري كولونيالي، الهدف منها التوجه نحو خدمة

الحركة الاستيطانية، والنتيجة، أن الذاكرة الوطنية، والتراث العلمي والأدبي الجزائري أصبح مهملاً، حيث أغلقت المؤسسات التعليمية وصودرت، وحولت معظمها إلى مؤسسات للإدارة الاستعمارية.

تجمع المصادر التاريخية على أن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال كان منتشرًا بشكل واسع، ولكن الإشكالية هل كان انتشار المؤسسات التعليمية بالضرورة يعني ازدهار التعليم في مناهجه ومقرراته ومخرجاته العلمية؟ وهل ظل رغم التحولات التي طرأت على العصر، خاصة في أوروبا، محافظاً على طابعه التقليدي، المستمد من الثقافة الإسلامية؟. وقبل ذلك هل كان التعليم في الجزائر آنذاك مؤطراً بسياسة تعليمية واضحة من طرف السلطة التركية القائمة، التي أهملت مجالات بعينها كالصحة والزراعة والحرف؟. وللإجابة على هذه الإشكالات سنبحث في:

أولاً: المؤسسات التعليمية في الجزائر قبل 1830م.

ثانياً: مناهج وطرائق التعليم الديني في الجزائر قبل 1830م.

ثالثاً: أهم المخرجات العلمية للمؤسسات التعليمية قبل 1830م.

أولاً: المؤسسات التعليمية في الجزائر قبل 1830م: على الرغم من الاختلاف الذي طبع مواقف المؤرخين حول سياسة البابليك الثقافية في الجزائر، والتي انطبعت إجمالاً باللامبالاة، وعدم الاهتمام بمناحي التعليم في مختلف مراحلها، إلا أننا لا نعدم وجود مؤسسات ثقافية، وهيكل تنظيمي للمنشآت العلمية، وموارد وقفية لتسييرها، كان وراءها جهد الأهالي الذين عملوا وفق إمكاناتهم، على توفير حد من التعليم.

1-مؤسسة الأحباس ودورها في تسيير المؤسسات التعليمية: تعتبر ظاهرة الحبوس¹، التي رافقت المؤسسات الدينية، إحدى أهم موارد الإنفاق على قطاع التعليم في الجزائر قبل الاحتلال، حيث الدولة بقيت بعيدة عن الاهتمام بالقطاعات الغير منتجة كالتعليم والصحة والفن، وعليه كان الوقف مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي²، لتوفير مداخل مادية لتسيير المصالح والقطاعات ذات الصالح العام ومنها التعليم.

تطورت ظاهرة الحبس في الجزائر، ويرجع المؤرخون سبب انتشار الظاهرة إلى المذهب الحنفي، الذي دخل الجزائر مع التوسع التركي في المنطقة، والذي يجيز الوقف مع استمرار استغلال الوقف لوقفه، مما حفز ظاهرة الحبس ما دام لا يحرم صاحبه وورثته من الاستفادة منه، حتى انتهاء عقبيهم³. عرفت المدن الرئيسية في الشرق والغرب والوسط الجزائري، قيام مؤسسات وقفية كبيرة، الهدف منها احتواء عدد العقارات والأحباس الضخمة، وعلى رأسها مؤسسة "بيت المال" الحكومية، التي وجهت عوائدها لخدمة الطبقات الفقيرة والأيتام وذوي الحاجات الخاصة.

أما "الجمعية الأندلسية" التي أسسها سنة 1624م اللاجئين الأندلسيون⁴، الفارون إلى سواحل شمال إفريقيا إبان حروب الاسترجاع، والتي كانت تشرف

¹ حول الوقف ولمزيد من التوسع ينظر: مجموعة مؤلفين: أشغال الوقف في العالم الإسلامي: أداة سلطة اجتماعية وسياسية، تقديم راندي ديغليم، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية (I F E A)، دمشق 1995م.

² أنظر مثلا وثيقة تحببس رمضان باشا لأرض على عامة الجزائريين في الرسالة رقم 42، الملف 2، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2305 مجموع.

³ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني: الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص- ص 149-150.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ج 2، ص 46.

على عشرات الممتلكات التي توجه عوائدها لدعم الوجود والاستيطان الأندلسي بالجزائر.

وإضافة إلى "مؤسسة مكة المدينة، التي كانت تشرف على هبات المجتمع الجزائري لفقراء مكة والمدينة، وترفق مع ركب الحج، فإنها تمثل آلية دعاية وتأثير للسياسة والدعاية للخارجية الجزائرية التي كانت جزء في منظومة السلطنة العثمانية، المفروضة كسلطة روحية وسياسية على المسلمين آنذاك.

أما مؤسسة "أوقاف الأشراف"، التي تأسست مطلع القرن السابع عشر (17م)¹، فكانت شكلا من أشكال التمايز لدى هذه الفئة التي ظلت تستند إلى أصولها، وتستتكف عن مد يدها إلى الفئات الاجتماعية الأخرى، فكان أغنياء الأشراف يساهمون بأوقافهم في دعم فقرائهم.

إلا أن مشروع مؤسسة "سبل الخيرات" التي أسسها الباشا شعبان خوجه سنة 1584م، والتي أشرفت على الإنفاق على المؤسسات الدينية الخاصة باتباع المذهب الحنفي، مذهب الأتراك والكراغلة والانكشارية، فقد كان الأضخم على الإطلاق بسبب عوائده وميزانيته الضخمة²، الناجمة عن تساهل المذهب الحنفي في استغلال الوقف، كما سبق وأن شرحنا، مما حفز الأحناف على حبس ممتلكاتهم.

كل هذه المؤسسات الوقفية الكبيرة، كانت للزوايا والجوامع والأضرحة والمزارات والثكنات العسكرية، مثل أوقاف الجامع الأعظم بالجزائر، وأوقاف المرابطين والانكشارية والأسرى في السجون.³

¹ حول هذه المؤسسة يراجع أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ط1، ج1، ص 238 وما يليها.

² زكية زهرة: "المؤسسة التعليمية في الجزائر أثناء الفترة العثمانية"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م، ج1، ص118.

³ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص- ص 242-243.

تنوعت الأوقاف وتنوع محبوسوها، فقد تبرع الباشاوات والأميرات والبايات،¹ كما قادة الجيش من الأغوات والبكوات، كما العامة من التجار والحرفيين و أصحاب الممتلكات، وذوي البر والإحسان من الأهالي رجالا ونساء.² أما الأوقاف ذاتها فقد تنوعت بين عقارات وكانت الأكثر انتشارا، أو منقولات شملت الأثاث و الأدوات، وهو من حيث هدفه قد يكون خيرا موجهها نحو المؤسسات الدينية، أو أهليا خاصا بالعائلة.

وضعت سلطة الإدارة هيكلا تنظيميا للأحباس، مع احتفاظ جهاز الحبس باستقلاليتيه التنظيمية والعملية، حيث توزعت الأحباس على المؤسسات الدينية والتعليمية والخيرية،³ كما نظمت مؤسسة الأوقاف في الحواضر والمدن مختلف العقارات والمنقولات الوقفية، و ذلك تحت إشراف مجلس علمي يرأسه كبار رجال الدين في المدينة سواء كان شيخا للإسلام أو مفتيا أو إماما، وفي المناطق الأقل أهمية كانت السلطة السياسية ممثلة في الباشا أو من ينوب عنه، ينصب على الحبس ناظرا يدير الممتلكات بمساعدة مجموعة من القضاة والوكلاء والفقهاء، ومن هنا ارتبطت الأحباس ارتباطا مباشرا بالمؤسسة والسلطة الدينية في آن واحد.

تعدى دور مؤسسات الأوقاف الحياة العلمية إلى دعم مختلف الهياكل ذات الخدمة الاجتماعية، مما أسهم في تنمية روح التضامن الاجتماعي، وفي تقوية الروابط بين مختلف الفئات والطبقات، وخاصة الأوقاف ذات الطابع الخيري كوقف السبالات ومقار إطعام الفقراء وعابري السبيل، ومساكن حضانة الأيتام ومجموعات صيانة الطرقات والمرافق العامة، مما ساعد في إشراك أفراد

¹ أنظر مثلا أوقاف صالح باي بقسنطينة على دار المرضى التي أسسها سنة 1780م في: دفتر صالح باي، مركز أرشيف ولاية قسنطينة، ص-ص 33-38.

² تلقى الجامع الأعظم بالعاصمة أوقافا من 22 امرأة أنظر: Boyer Pierre; la vie quotidienne d'Alger a la veille de l'intervention francaise, Paris 1963, p 73.

³ ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 44.

المجتمع في حماية تماسكه وتقوية روابطه وضمان استقراره، وتقليل الفوارق بين طبقاته، ومساعدة ذوي الدخل المحدود في توفير حاجياتهم.¹

ظلت ميزانية التعليم قبل دخول الفرنسيين إلى الجزائر مقتصرة على ما يوجد به السكان من أوقاف وصدقات وتبرعات، ومن ثم ظلت عوائد الأعباس المصدر الأساس في ميزانية قطاع التعليم. فقد أسس الباشا حسين ميزموروطو مثلاً جامعاً كبيراً أوقف عليه أراضي ودكاكين وسوقاً، على أن تعود مداخيلها لتنظيف وصيانة المؤسسة، أما جامع السفير فقد أوقف عليه خيرالدين باشا قطعة أرضية للإشراف على مصاريفه.²

امتلكت الزوايا عدداً مهماً من الأعباس على اختلاف أهميتها الدينية والعلمية، فقد بلغت أملاك زاوية صدوق بمنطقة القبائل، قبل أن تصادرها الإدارة الاستعمارية، أكثر من 505 هكتار من الأراضي، شملت 22 مزرعة، و6 بساتين، و6 أحواش، و15 دكاناً ومخزناً، و3 إسطبلات، و3 رحي، ومعصرة زيتون.³

لعبت مؤسسات الحبوس المنتشرة في مختلف أنحاء القطر، في الريف كما في المدينة، على استمرار عمل المؤسسات التعليمية المتمثلة آنذاك في المساجد والزوايا خاصة، وفي حصول العاملين فيها من مؤذنين ومدرسين ومؤدبين وخطباء وطلبة على مستحقاتهم ومنحهم.⁴ كما أن هيئات الأوقاف كانت مسئولة بشكل مباشر، في تسيير الهياكل الدينية، التي هي بالأساس

¹ الصالح صالح: "الدور الاقتصادي والاجتماعي للقطاع الوقفي"، مجلة العلوم الإنسانية، منشورات جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد 8، لسنة 2005، ص 167.

² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص 235.

³ ناصر الدين سعيدوني: "مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية بلاد القبائل نموذجاً"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م، ج 1، ص 56.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ج 2، ص 43.

هياكل علمية بداية ببنائها وترميمها، وصولاً إلى صرف رواتب المدرسين والعمال وانتهاء بالتكفل بطلبة العلم إقامة وأكلاً ومنحاً.¹

2- المساجد والزوايا: تعتبر المساجد مظهراً من مظاهر الثقافة،² فإلى جانب كونها أماكن لأداء العبادة فإنها ملتقى لحلقات الدرس والعلم وتبادل المعرفة وتدرّس العلوم الدينية كالفقه والعقيدة والأصول والتفسير والحديث، وقد نقل لنا ابن ميمون على لسان عالم الجزائر عبد الرحمن الجامعي صورة عن هذه الحركة العلمية خلال القرن 18م عندما كتب قائلاً: "ومساجدهم بالتدريس معمورة".³

اختلفت أهمية المساجد دينياً وعلمياً، بحسب جغرافية وجودها، وأهمية أحباسها، وقيمة علمائها ومدرسيها، فقد استحوذت مساجد المدن الكبرى على هذا الدور، كما أن مساجد المدينة كانت على أهمية أكبر مقارنة بتلك الموجودة في الأرياف، ولذلك فإن الجوامع الكبرى في عواصم البايليكات استحوذت على الأدوار الرئيسة دينياً وعلمياً وتنظيماً، حيث اتخذت مقراً للمجالس الشرعية، التي كانت تنظم أسبوعياً، ومقراً لمكتب الإفتاء المالكي والحنفي، ومركزاً للمناظرات الدينية، والحلقات العلمية لكبار المدرسين.

تفتقر المصادر الجزائرية لإحصاءات دقيقة عن المؤسسات الدينية الموجودة قبل 1830م، حتى قامت سلطة الإدارة الاستعمارية بتقييد هذه

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 103 وما يليها.

² المسجد كلمة مشتقة من السجود بمعنى الخضوع والتسليم لله، وهو مكان أداء الطقوس الدينية الإسلامية، ومع مرور الوقت وتطور المظاهر الحضارية، أصبح مركزاً ثقافياً ودينياً واجتماعياً وعلمياً، حيث اتخذت بزواياه مدارس وكتاتيب لتعليم العلوم الدينية. إبراهيم مذكور: معجم العلوم الاجتماعية، البعثة القومية للتربية والعلوم الثقافية (اليونسكو)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، 542.

³ محمد ابن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائرية المحمية، تح محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 59.

المؤسسات وعوائدها الوقفية، بينما اكتفت المصادر قبل ذلك ببعض الإشارات عن بعضها، فقد ذكر الأسير الإسباني ديغو دي هايدو (Haedo) أن عدد مساجد العاصمة في القرن 16م، قد بلغت المائة (100) مسجد، منها سبع (7) جوامع، ووصل عددها في القرن 19م حسب الرحالة الإيطالي بينانتي (Pinanti) إلى تسعة (9) جوامع، وخمسون (50) مسجدا، بينما أحصى مصدر آخر إثنتين وتسعون (92) مسجدا مالكيا، وأربعة عشرة (14) مسجدا حنفيا، وسجل ديفوكس (Devoux) في المجلة الإفريقية، عشية الاحتلال مائة وتسعة (109) مساجد، وثلاثة عشر (13) جامع خطبة، واثنان وثلاثون (32) ضريحا، واثنان عشرة (12) زاوية، أهمها الجامع الأعظم، وجامع السيدة، ومسجد علي بتشين، وجامع كنتشاوة.¹ بينما في قسنطينة، تم إحصاء خمسة وسبعون (75) مسجدا، أشهرها الجامع الكبير، جامع سيدي الكتاني، جامع سوق الغزل. وفي تلمسان بلغ عدد مساجدها الخمسون (50)، أشهرها الجامع الكبير، وجامع سيدي بومدين.

كانت المساجد، تتحول عقب كل صلاة إلى حلقات للدروس العلمية، حيث يتحلق الطلبة لمتابعة الدروس، التي كانت في حكم التعليم المتوسطي والثانوي في يومنا، بينما وصلت بعض تلك الحلقات إلى مستوى التعليم العالي، إذا توفر عدد من كبار العلماء، من ذلك حلقات الدروس بالجامع الكبير بالعاصمة، والتي تخطت إثني عشرة (12) حلقة، أبرزها حلقة المفتي سعيد قدورة، والشيخ علي الأنصاري.²

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص، ص 247، 248، 253، 263.

² والشيخ قدورة تونسي المولد، جزائري المنشأ، تلقى تعليمه الأولي في الجزائر، وبعد وفاة والديه سنة 1002هـ، شد الرحال إلى تلمسان وفقيق ونافيلالت وسجلماسة وفاس، ليستقر بعدها بالجزائر، حيث تولى عدة مناصب رفيعة أهمها إمام ثم مدرس فخطيب ثم وكيل للأوقاف، وفي سنة 1028هـ أصبح مفتي المالكية بالجزائر حتى وفاته سنة 1066هـ، وهو من مؤسسي أسرة قدورة بالجزائر، التي لعبت دورا كبيرا في الحياة العلمية والسياسية والدينية بالجزائر، حيث تولت الفتوى وراثته بين أبنائها لأكثر من قرن. أما الأنصاري فقد نشأ بسجلماسة، ثم

تعتبر الزوايا نموذجا للتطور المعماري للرباطات التي ظهرت بثغور شمال إفريقيا، ثم سرعان ما انتشرت مع الوقت في مختلف المناطق متخذة شكل مجتمعات ومراكز لدراسة القرآن والعلم والتربية، تحت مسمى "الرباطة"¹، بينما ظلت كلمة "الرباطات"، تطلق على المراكز العسكرية، وبذلك تعتبر الزاوية نقطة النقاء مادية بين الرباط وروح التصوف، بما حوته من ضريح الشيخ، والمسجد، وغرف إدارية وعسكرية، ومقبرة، وبما أخذته على عاتقها من نشر العلم، والتكفل بالفقراء والطلبة، فكانت أشبه بالمجمعات الثقافية.

تعددت معاني كلمة "الزاوية" لغة واصطلاحا، فهي في الأصل ركن البناء، وتطلق على بناء ذي طابع ديني، ونظرا لاختلاف مكوناتها واشتراكها في البعض الآخر فقد اختلف في تعريفها، فهي عند دumas (Dumas): "مدرسة دينية، ودار مجانية للضيافة، وهي بهذين الوصفين تشبه الدير في العصور الوسطى"². وقد عرفت انتشارا واسعا، مع الغزو التركي للجزائر، بسبب الطبيعة الصوفية للأتراك، أتباع الطريقتين المولوية والبكتاشية، اللتين لعبتا دورا مركزيا في تأسيس الإنكشارية، عمود الدولة والمجد التركيين، فلم يكن بدعا أن يولي أتراك الجزائر اهتماما كبيرا للزوايا، التي زاد عددها في تلك الفترة.³

تتكون الزاوية، والتي عادة ما تحمل اسم مؤسسها، من ضريح الولي الصالح المؤسس إضافة إلى مصلي ومائضة ومدرسة للدرس إضافة لغرف إقامة الطلبة وعابري السبيل، وبذلك لعبت الزاوية دورا روحيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، فساهمت في نشر التعليم القرآني وتوعية وتربية أفراد المجتمع

ارتحل إلى فاس فالحجاز ثم مصر، ثم عاد إلى المغرب واستقر نهائيا بالجزائر، حيث توفي سنة 1057هـ. أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص، ص 382 و 370.

¹ محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر 1989، ص 28.

² محمد نسيب، المرجع السابق، ص 27.

³ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص، ص 223، 264.

وتوجيههم¹. وكانت ملجأ للفقراء والمساكين، ومأوى للغرباء والعجزة، ومطعما للفقراء ودارا لعباري السبيل. وساعدت في تمتين الروابط الاجتماعية بالفصل في الصراعات القبلية، بحكم نفوذها الروحي الذي كان عامل استقرار اجتماعي للقبيلة، وعامل انسجام لمجتمع الريف، وبذلك ألقت الزاوية شبكة اجتماعية ذات فعالية ومصادقية، حافظت من خلالها على الاقتصاد القبلي المحلي، مستندة إلى مبدأ التكافل الاجتماعي².

انتشرت الزوايا في الأرياف، في مقابل انتشار المساجد والكتاتيب في المدن، وقد اختلفت المصادر في الأرقام المقدمة حول عدد الزوايا، والسبب يعود إلى التداخل بين مفهوم الزاوية والضريح والرباط. فهي في قسنطينة و ريفها تعدت الثلاثة عشرة (13) زاوية، أهمها الزاوية الرحمانية والقادرية والعيساوية والعابدية والباش تارزية. وفي منطقة القبائل، والتي كانت أكثر المناطق الجزائرية غنى بهذه المؤسسات، فقد وصل عددها إلى خمسين (50) زاوية أشهرها زاوية سيدي التواتي، ولالا فاطمة، وسيدي أمقران، والشلاطي. أما في العاصمة وأحوازها فقد أحصى ديفوكس سنة 1830م، ما يفوق اثنان وثلاثون (32) قبة، واثنان عشرة (12) زاوية، أشهرها زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسيدي عبد القادر الجيلالي، وسيدي الكتاني³.

ومن زوايا العلم، التي عرفت شهرة علمية في الجزائر قبل الاحتلال، على سبيل الذكر لا الحصر، الزاوية القشاشية التي تحولت إلى مدرسة عليا ألحقت بجامع القشاش، وزاوية آل الفكون بقسنطينة، وزاوية مازونة بتلمسان، التي ذاع صيتها بسبب المستوى العالي الذي طبع دروسها⁴.

¹ ناصر الدين سعيدوني: مؤسسة الزوايا، المرجع السابق، ص- ص 41-42.

² ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص- ص 77-79.

³ Albert devoux; les édifices religieux de l'ancien Alger, Revue Africaine, pub O P U, N 6, A 1862, P 372.

⁴ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص - ص 263-265.

أنيط بالزاوية، مهام تعليمية، فساهمت في تكوين الوعي الثقافي والاجتماعي لأفراد المجتمع، وقد ذكر المؤرخ ابن ميمون أن التعليم في الزوايا كان يتم على مرحلتين: إحداها يتم فيها احتضان الأطفال لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، بينما يتم في المرحلة الثانية تأهيل طالب العلم ممن أثبت جدارة في المرحلة الأولى لدراسة مختلف العلوم الدينية الكلاسيكية كالفقه والعقيدة وقواعد النحو والصرف والبلاغة والمنطق.¹

والحقيقة أن معظم الزوايا في عصر الانحطاط قد غلب عليها طابع الزهد، وأخذت منحى تعبدية صوفيا، فزادت عزلتها، وانغلقت على تراثها، الذي أصبح يتوالد داخليا، واكتفت بالبساطة في الأداء والسطحية في التفكير، ولو أنه لا يمكننا إنكار دورها الإيجابي في تعميم التعليم، إضافة إلى دورها في التكافل الاجتماعي، والمقاومة الثقافية، حيث كانت وظيفيا تنقسم إلى قسمين: الأول تحفيظ القرآن للصغار، والثاني تدريس حفظ القرآن علوم العصر، كالدراسات الفقهية والعقائدية واللغوية وشيئا من المنطق والفلك.

توقفت شهرة الزوايا التعليمية على شهرة مدرسيها، وإقبال طلبة العلم من الداخل والخارج، ولذلك عادة ما يرتقي بعضها إلى مدارس عليا، يدرس فيها علماء كبار، وتساهم في الحياة العلمية والثقافية بالجزائر، فتلك المخرجات كثيرا ما كانت رافدا مهما للكادر العلمي بالمدارس والمعاهد العليا، وحتى في الجامعات والمعاهد الإسلامية بشمال إفريقيا وغرب آسيا، حيث أوجد الجزائريون لأنفسهم مكانة علمية بجامع القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، والحرمين بمكة والمدينة².

¹ ابن ميمون، المصدر السابق، ص- ص 58-59.

² لمزيد من الإطلاع يراجع: محفوظ رموم: " الرحلة العلمية: دراسة في التأثير الثقافي للجالية الجزائرية بالشرق خلال العهد العثماني"، مجلة الشهاب الجديد، تصدرها مؤسسة ابن باديس، قسنطينة، العدد 7، لسنة 2008، ص 32 وما يليها.

3- الكتاتيب والمدارس: انتشر التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بسبب انتشار الكتاتيب، التي تعرف في اللغة المحلية لسكان المدن بـ "المسيد" أو "المكتب"، وفي الأرياف والبوادي اسم "الشرية"، والتي كانت في حكم المدارس الابتدائية في يومنا هذا، وهي عبارة عن غرف أو أجنحة ملحقة بالمساجد والزوايا، ولذلك كان كل كتاب يحمل اسم الحي الموجود فيه أو المسجد أو الزاوية التابعة له.¹

انتشرت الكتاتيب في كل مكان وحي ومسجد وزاوية، فتحمل أسماءها كمكتب الشماعين، ومسيد زاوية الجامع الكبير بالعاصمة، وأحيانا كانت تحمل اسم الواقف أو المؤدب كمكتب علي باشا، أما من حيث الوظيفة فمنها ما كان عاما، ومنها ما كان خاصا بمذهب أو جماعة أو طائفة، ومن هنا تعذر إحصاءها، واختلفت أرقام المصادر حولها، إذ لا توجد خصائص تميز بين المدرسة والكتاب، كما كانت بعض المساجد والزوايا في بعض المناطق تقدم تعليما ابتدائيا، وقد ذكر البعض أنها بلغت نحو ثلاثة آلاف (3000) كتاب منتشرة في أنحاء الجزائر.²

عادة ما تفتقر الكتاتيب للشروط الصحية والتهوية، وتعتمد وسائل بسيطة في تجهيزها، ما أدى إلى انتشارها، حتى أنك لا تجد حيا أو منطقة تخلو منها، ورغم اقتصار دورها على تعليم القرآن والحروف، إلا أنها أسهمت في محاربة الأمية، وهذا ما جعل الرحالة الأوروبيون وتقارير الإدارة الاستعمارية، تجمع على أنه لا يكاد يوجد في الجزائر من لا يعرف القراءة والكتابة قبل 1830م، وقد سجل الرحالة الألماني ويليام شيلر شهادته قائلا: "لقد بحثت قصدا عن جزائري

¹ حسان صبحي: النظام التربوي الاستعماري 1830-1962، رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر 2005، ص، ص 16، 19.

² أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791م) حروبه أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 62.

واحدا يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب...".¹

اختلفت الإحصاءات حول عدد الكتاتيب، بسبب عدم إشراف السلطة عليها، حيث كان أهالي الحي يتكفلون بإنشائها وتسييرها، إلا أن بعض الإحصاءات وردت إلينا هنا وهناك، ففي الجزائر العاصمة أحصت سلطات الاحتلال بعد دخولها حوالي (80) كتابا،² منها مكتب العمالي ومكتب الشماعين،³ و(86) مكتبا بقسنطينة، بينما ضمت أزقة مدينة تلمسان أكثر من (50) كتابا يؤمها أكثر من ألفي طفل.⁴

كان الهدف النهائي للمنهج التعليمي في الكتاتيب تحفيظ القرآن عن طريق الاستظهار، وضبط تقنية القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب وقواعد الدين وحفظ بعض المتون في مرحلة متقدمة، التي ستكون أساسا للتعليم التكميلي، ومن هنا كان دور التعليم الابتدائي في العملية التعليمية التعلمية يهدف إلى: -إعداد التلاميذ لمرحلة التكميلي في الزوايا والمدارس العليا أو حلقات المساجد الجامعة في المدن.

-تقديم رصيد معرفي يسمح باكتساب خبرات لمواجهة الحياة العملية.

-القضاء على الجهل بتعليم القراءة والكتابة.

-تقديم المعارف الأولية لممارسة الشعائر الدينية.

¹ أبو العبد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830-1855، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 13.
² عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، دار الفكر الإسلامي، ط1، الجزائر 1982، ص 272.

³ عبد الرزاق ابن حمادوش: لسان المقال في النبأ عن النسب والحساب والحال المعروفة برحلة ابن حمادوش الجزائري، تح أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص 221.

⁴ حمدان خوجه بن عثمان: المرأة، تق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص 6.

ولذلك تميز التعليم، بانتشار المؤسسات التعليمية، فمن المكاتب الابتدائية، إلى المدارس، التي هي في حكم مدارس التعليم الثانوي والعالي اليوم، وإذا كان من السهل تحديد مفهوم "المسيد"، بحكم بساطة العمارة ونوعية التعليم، إلا أنه من الصعوبة تحديد مفهوم المدارس، بسبب عدم وجود تراتبية واضحة، ومقررات ثابتة، وشهادات نجاح رسمية للانتقال من مرحلة لأخرى، أو للتخرج النهائي، حيث لم ينظم التعليم في الجزائر وفق البرامج والقوانين المعمول بها حديثاً، والتي تحدد سن الالتحاق بالمدرسة، والانتقال من مؤسسة لأخرى، ومن صف لآخر داخل المدرسة الواحدة، إلا بعد دخول الفرنسيين، إلا أننا نقبل بهذا التقسيم بداية، لتسهيل المفاهيم وتقريبها للقارئ، ولأنه أقرب لمراحل التعليم خلال تلك الفترة.

هذا الاتساع في مراكز العبادة والتعليم هي التي أوصلت القراءة والكتابة إلى الجميع وحاربت انتشار الأمية ولنترك الباحثة الفرنسية إيفون توران تقارن التعليم بين مرحلتين من حيث الانتشار وليس بالضرورة من حيث المستوى، حيث تقول: "إن التعليم الابتدائي كان أكثر انتشاراً في الجزائر مما نعتقده عموماً، وقد أظهرت علاقتنا مع أهالي المقاطعات الثلاث أن متوسط عدد الأشخاص من جنس الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة يساوي على الأقل المتوسط الذي أعطته الإحصائيات الولائية عن أريافنا..."¹

اشتهرت في الجزائر بعض المدارس الثانوية منها مدرسة الجامع الأعظم والمدرسة الأندلسية والمدرسة القشاشية، وفي معسكر المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير، وفي تلمسان مدرسة سيدي أبي مدين الغوث.² بعض

¹ إيفون توران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغنة، مراجعة وإشراف مصطفى ماضي، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، 135.

² عبد المجيد قدور: "الهجرة الأندلسية في المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائر نموذجاً"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد 20، 2003، ص 170.

هذه المدارس أصبحت تقدم تعليما عاليا، بسبب نخبة العلماء المدرسين الذين تصدوا للعملية التعليمية فيها، حيث حرصوا على أن لا تكون محاضراتهم أقل مما يقدمه نظرائهم في القرويين والزيوتنة، وقد أكد المؤرخ الفرنسي إيميريت (Emerit) الذي درس الوثائق الأرشيفية التي تخص الحياة العلمية والثقافية للجزائر قبل 1830م، على أن التعليم العالي كان يلقن في الجوامع العظمى في المدن الكبرى، وهذا ما أكدّه الأستاذ فانسان (Vienssin) في دراسته سنة 1883م.¹ منها مدرسة المسجد الأعظم بالعاصمة، التي وصل عدد حلقات الدرس بها إلى 12 حلقة وتصدر التدريس بها عدد من كبار العلماء كعلي الأخضر (ت 1644م)،² والمفتي الشيخ سعيد قدورة (1656م)،³ ومنها مدرسة مازونة بتلمسان المتخصصة في علم الكلام والفقه والحديث، ومدرسة خنقة سيدي ناجي بالأوراس، التي اختصت في علم الفقه والنحو.⁴

كانت المدارس تقدم منحا للطلبة من الأوقاف التي تسير حاجات المدرسة ومتطلباتها، وتوفر لهم الإقامة طيلة فترة التكوين، مما سمح برفع عدد الطلبة الملتحقين بالمؤسسات التي تتولى تقديم منح وتكفل بحاجات الطلبة.⁵ بينما كان شيخ المدرسة هو المدرس الذي قد يكون إماما أو قاضيا أو مفتيا، وكان لطلبة هذا المستوى نشاطا علميا عاما وتأثيرا على الحياة في الجزائر حيث يتصدرون

¹ زكية زهرة، المرجع السابق، ص 127.

² وعبد الرحمن الأخضر أحد كبار علماء عصره عاش في الفترة بين 920-953 هـ اشتهر بالمنطق وقد ترك لنا قصيدته "السلم المرووق".

³ هو سعيد بن إبراهيم قدورة، من أسرة علم، نبغ في الفقه والحديث، له "شرح على الصغرى للسنوسي" و"شرح السلم المرووق" أنظر: محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص 73.

⁴ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص- ص 284-285.

⁵ أبو القاسم سعد الله: "بعض التحولات في مسيرة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م، ج 1، ص 102 وما يليها.

مناصب القضاء والفتوى والكتابة وقد قدر عددهم بالجزائر بين ألفين و ثلاثة آلاف طالب.¹

أما فيما يخص المكتبات فقد ساهمت في تنمية الروح العلمية والثقافية للمجتمع، وانتشرت في مختلف المؤسسات التعليمية، حتى أن مؤرخي الاحتلال اعترفوا بكثرة الكتب والمكتبات وخزائن المخطوطات، حيث اهتم الجزائريون بجمع الكتب وتأليفها ونسخها، مما سمح بتكوين مكتبات عامة وخاصة تحوي أمهات الكتب في مختلف العلوم الدينية، فقد كانت الأولى ملحقة بالمؤسسات التعليمية على أنواعها، أهمها مكتبة الجامع الأعظم بالعاصمة، والمكتبة الكتانية التي أسسها صالح باي قسنطينة، ومكتبة المدرسة المحمدية بمعسكر، ومكتبة الشيخ التازي بوهران.² بينما ألحقت الأخيرة بالمنازل، منها مكتبة سيدي حمودة التي تملكها عائلة آل الفكون بقسنطينة، والتي عثر بها شارل فيرو سنة 1837م، على أكثر من 3 آلاف مجلد³ بين كتاب ومخطوط في مختلف العلوم الدينية والأدبية، ومكتبة قصر مصطفى باشا التي جمعت بين رفوفها ما يقارب 40 ألف مجلد في شتى صنوف العلم، وألفي كتاب مخطوط منها مخطوطات باللغة التركية،⁴ وتجدر الإشارة أن هذا النوع من المكتبات لحقها الضرر، أو صادرتها الإدارة الاستعمارية.

¹ زكية زهرة: المرجع السابق، ص- ص 122-124.

² ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 60. والتازي هو إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي، نزيل وهران، وهو عالم صوفي وإمام علم القرآن، من مؤلفاته قصيدة "النصح التام للخاص والعام"، توفي سنة 1461م.

³ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص 257.

⁴ مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1981، ص 30.

ثانيا: مناهج وطرائق التعليم الديني في الجزائر قبل 1830م: انتظمت المؤسسات التعليمية قبل 1830م، في مناهجها وأساليبها وفق ما توارثته الثقافة الإسلامية الكلاسيكية الموروثة بدورها عن أساليب العصور الوسطى، والتي لم يجر عليها أي تعديل أو تحديث.

1-مناهج و أساليب التعليم. يبدأ الطفل الجزائري تعليمه الأولي، وهو في سن الخامسة أو السادسة من عمره، حيث يكتمل عادة النمو البدني والعقلي والنفسي للطفل، ويقوم مؤدب الحي بتحفيظه القرآن وقواعد الدين، وتقسّم العملية التعليمية إلى حصتين تمتد لأربع ساعات عادة، حيث في الفترة الأولى الصباحية يقوم الطفل بمراجعة ما تم تعلمه في الحصص السابقة، وكتابة الآيات الجديدة على اللوح الخشبي، وفي الفترة المسائية يتم استظهار ودراسة المواد التكميلية كتعلم الحروف والخط مع بعض الدروس الفقهية البسيطة والحساب وحفظ المتون.¹

لم تكن عملية الانتقال من هذه المرحلة واضحة المعالم، فهي عادة ما تخضع لقدرة العائلة على تحمل نفقات التعليم وعدم الحاجة لطفلها في سوق العمل، الذي عادة ما يلتحق به الأطفال مبكرا، فأعمال الزراعة هي ملجأ أطفال الأرياف والأعمال الحرفية ملجأ أطفال المدن.² وعلى خلاف التعليم المكتبي الذي يتميز بمؤسساته القائمة عليه، والمحدد بنوعية المعرفة المقدمة، وبالفترة الزمنية التي يستغرقها عادة، وبالسنة الذي يسمح للطفل بمزاولته، فإن التعليم التكميلي خلاف ذلك، فهو يفتقد لسلم تربوي محدد وفق قوانين منظمة للعملية التعليمية، وبرامج محددة لنوعية المعرفة الواجب تقديمها، ولأساليب الانتقال من مؤسسة لأخرى وفي سن أو فترة محددة، فالأمر متروك للشيخ المدرس. يجلس الطالب لحلقات العلم، التي تغطي الفترة الصباحية أو المسائية، وأحيانا توزع الحلقات على ثلاث مراحل، واحدة في الصباح وأخرى بعد الظهر

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص 339 وما يليها.

² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص 342.

وثالثة بعد صلاة العصر، وقلة من المؤسسات من تكون حلقات الدرس فيها على طول فترات النهار، حيث لا تتوقف الدروس إلا لأداء الصلاة¹.

لم تكن حلقات الدرس في هذه المرحلة موحدة أو خاضعة لمقررات معينة، وإنما تتميز بحرية تحديد الكتب التي يختارها المدرس وما على الطالب إلا أن يحدد رغبته في الجلوس لحلقة الدرس هذه أو تلك، ولو أنها لم تكن تخرج عن أمهات الكتب في مختلف العلوم الدينية واللغوية، وعليه فإن أطراف العملية التعليمية تتمتع بكامل الحرية في تسطير برنامجها الدراسي، والزاوية أو المسجد له كامل الصلاحية في اعتماد أي برنامج أو مقرر يراه شيوخها مناسباً لطلبتهم.

تعتمد العملية التعليمية على طريقة الحفظ والتلقين والتخزين اللفظي، مع ذلك نميز أن كل مرحلة تعليم تتميز ببعض الخصوصية في أساليبها، ولو أن الهدف النهائي للعملية التربوية آنذاك، كانت مقتصرة على تعميم القراءة والكتابة ومحو الأمية، بما يصل إلى 90% من سكان القطر، بينما لم تتعد نسبة من يحوزون ثقافة متوسطة المستوى منهم نسبة 60%.²

كان التعليم في الكتاب نمطياً، حيث يتحلق الطلبة على حصائر تفرش على الأرض، حول الشيخ في شكل نصف دائري، حيث يكتبون آيات القرآن على لوح خشبي مربع مصقول، مطلي بالصلصال الأبيض باستعمال أقلام مصنوعة من مادة القصب.³

يكتب الطفل على اللوح درسه المطالب باستظهاره على الوجه الأول، والدرس المطالب بحفظه على الوجه الثاني، ثم تبدأ عملية التعليم عن طريق

¹ ابن مريم: المصدر السابق، 145.

² كلثوم بن أعراب: خطاب الإصلاح والنهضة في القرن التاسع عشر حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي نموذجاً، مذكرة ماجستير، تحت إشراف الدكتور احميدة عميراي، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 2003/2002، ص 50.

³ قدم الأسير والقنصل الأمريكي هذه المعلومات في شهادته أنظر كاتكارت: مذكرات أسير الداي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر إسماعيل العربي، دار المنشورات الجامعية، الجزائر 1982، ص 98.

القراءة بأصوات مرتفعة وبنغمة موحدة وحركة الجسد من الخلف إلى الأمام والأرجل مربعة حتى يتمكن التلاميذ من الحفظ، كل ذلك في صورة تتكرر في كل الكتابات، التي تنطلق فيها أصوات آيات القرآن الممتزجة بعضها ببعض الآخر.

يتولى المؤدب الإشراف على النظام، فيعطي أوامر انطلاق عملية الحفظ أو التوقف للتصحيح، كما يعاقب الأطفال، باستعمال العنف اللفظي أو العنف الجسدي، الذي أقله الضرب بالعصا على الأيدي، وقد يصل إلى الفلقة إذا كان الخطأ كبيرا، وهي الضرب على القدمين بعد تمديد الطفل على ظهره، وعلى الرغم من أن ذلك يناهز أهداف العملية التربوية التي من أهدافها ضمان الصحة والسلامة النفسية والجسدية للطفل، إلا أن هناك من الباحثين من يدافع على هذه الطرق اللابيداعوجية ويعتبرها "ضرورية لتحقيق النظام".¹

أما في مرحلة التعليم التكميلي، فإن الاعتماد على طريقة التخزين اللفظي تخف لصالح اعتماد أسلوب التلقين القائم على الشرح والإملاء، حيث يختار الشيخ مقررا في فن من الفنون، ويطلب مريديه بالاطلاع عليه، وفي الحلقة يقوم المسمع² بقراءة نص أو جزء أو عنصر من الكتاب، ثم يقوم الشيخ بشرح النص فقرة فقرة، والتوسع في دقائق لأمر بالاستعانة بعلوم أخرى وهنا يتضح قدرة المدرس على فتح الأقواس وتوضيح المستشكل من المسائل وتعميق الشروح والتوسع فيها، والاستشهاد بالمنقول والمعقول بناء على كفاءته وقدراته العلمية، وبعد الانتهاء من شرح الجزئية يقوم بإملائها ثم يفتح باب النقاش

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص- ص 339-342.

² المسمع ويعرف عادة باسم المعيد، ويكون دون الشيخ وأحسن من نظرائه الطلبة، حيث يتولى إعادة الشرح بعد إلقائه، ويسمعه، وقد ظهرت هذه الرتبة العلمية في القرن 11م، وهي ربما تماثل اليوم طالب مرحلة الماجستير. أنظر عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص 122.

والتعقيب وطرح السؤال،¹ ويرافق هذه العملية قيام الشيخ أو من يكلفه بوضع حواشي لتقبيد تعاليق وملاحظات الطلبة، مما أسهم في حركة التدوين والتأليف، وانتشار ما سيعرف بظاهرة الشروح والحواشي.

وعليه فإن العملية التعليمية وأساليب التكوين هي نفسها التي طبعت العلوم الإسلامية منذ القرون الوسطى، حيث اقتصر على فهم وحفظ القرآن والعلوم المرتبطة به، مثل مرويات الحديث وأصول العقائد وشروح الفقه، وكان لسان حالهم قول أحد علماء الفترة الشيخ عبد القادر الراشدي:²

خبر عني المريد بأني كافر بالذي قضته العقول.

ما قضته العقول ليس من الدين بل الدين ما حوته النقول.

يبقى أن نشير إلى أن العلاقة التي تربط طالب العلم بالشيخ، كانت تتعدى مجرد طلب العلم إلى اعتبار الطالب نفسه مريد، حيث تتعمق العلاقة إلى درجة الرفقة والصحبة، فالجلوس إلى حلقة الدرس مدة قد تمتد لسنوات، تأثر في الطالب نفسيا وعقليا وعلميا، فيصبح الشيخ ليس مجرد معلم بل مثال يحتذى به، فهو يتكفل ويوجه وينصح ويرافق ويتبنى، و فقد تستمر العلاقة إلى ما بعد فترة التلمذة.

2-المقررات والإجازات.

غلبت الثقافة الدينية على الإنتاج الثقافي، حيث اهتم علماء الجزائر، على غرار نظرائهم في المنطقة وفي المشرق بالعلوم الدينية، و كادت العلوم الأخرى تندثر تماما، ولم يكن هذا الشيء بدعا في حضارة تميزت بالتأثير الديني على الحياة الفكرية، حيث كانت معظم العلوم يتم ربطها بالكتاب والسنة بما في ذلك

¹ عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص 263.

² محمد ابن ميمون: المصدر السابق، ص 47. و عبد القادر الراشدي أحد كبار علماء عصره، قسنطيني الأصل، تتلمذ على الشيخ أحمد الزروق البوني، ومن مؤلفاته "حاشية شرح السيد للمواقف العضية" و"رسالة تحريم شرب الدخان"، وكتاب "مباحث الاجتهاد"، توفي سنة 1780م.

الطب والفلك والصيدلة، وقد زاد شيوع ظاهرة التصوف في العصر الحديث تعميق هذه الخصوصية، ومن ثم كانت المقررات الدراسية كلها تتركز على أمهات المصادر الدينية.

عرفت المقررات الدراسية تنوعا ضمن إطار المعارف الدينية، حيث كانت أمهات كتب القرون الأولى لعملية التدوين، إضافة إلى كتب المتأخرين، مصدر المعرفة وذلك بعد القرآن وكتب الصحاح، ومن خلال رصد المؤرخين الفرنسيين لمحتوى المكتبات الخاصة والعامة التي تم العثور عليها بعد الاحتلال، والإجازات التي كانت تمنح للطلبة، يمكننا تحديد أهم هذه المقررات الدراسية في الجزائر و التي تتكرر إجمالا كما يلي:

يأتي علم التفسير في مقدمة العلوم الأساسية للتكوين، ويعتمد على مجموعة من المؤلفات أهمها: "تفسير الثعالبي" و"تفسير السيوطي"، بينما يأتي علم الحديث في المرتبة الثانية، حيث يعتمد تدريسه على "صحيح البخاري" و"كتاب الشفاء" للقاضي عياض و"ألفية العراقي" في مصطلح الحديث و"كتاب أبي جمره".¹

يعتبر الفقه و أصوله عمود العلوم الشرعية ولذلك فإن درسه وتدرسه قد يبدأ من الكتاب في شكل فقه عبادات ثم يستكمل لاحقا في مراحل التعليم الأخرى ويعتمد في الجزائر أساسا على "مختصر خليل"، ومختصر ابن الحاجب المعروف تحت عنوان "منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل"، و"رسالة أبي زيد القيرواني"، وجمع الجوامع" للسبكي، و"شرح المحلى" على السبكي.²

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص- ص 122-123.

² محمود بوعياض: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/ 15م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 72، 121، 122.

أما علم التوحيد فقد كان المرجع فيه كتاب "المنظومة الجزائرية" و"عقائد السنوسي" بشروحها الثلاثة، في حين كانت آداب التصوف تختلف من جهة لأخرى ولكن عمودها كتاب "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري، و"إسقاط التدابير".

وكانت العلوم اللغوية تعتمد "المقدمة الأجرومية في مبادئ علم العربية" لابن عبد الله محمد الصنهاجي عمود الدراسات النحوية والصرفية، إضافة "الألفية" لابن مالك في النحو، و"اللامية" لابن مالك في الصرف، بينما كان تدريس البلاغة يتم على كتاب "الجوهر المكنون" للأخضري، و"حواشي السعد التفتزاني" و"متممه" و"تلخيص المفتاح" في علم البيان و"المنظومة الخرجية" في علم العروض.¹

لم تحظى بقية العلوم سوى بالنزرة اليسير من البحث والتدريس، حيث يأتي علم الفرائض في مقدمتها، والذي يعتمد على "أرجوزة التلمساني"، والفلك على كتاب "السراج المنير" للأخضري، والمنطق على كتاب "الجمل" للخونجي، و"مختصر السنوسي"، و"السلم المرونق" للأخضري، أما التاريخ فلم يحظى بالاهتمام، وكان تدريسه من باب الثقافة العامة وليس التخصصية، لمعرفة تاريخ المنطقة وتراجم رجالها، بينما أهملت بقية العلوم الأخرى وعلى رأسها الطب والرياضيات والفلك، التي أصبحت ملحقة بالسحر والشعوذة، وفي ذلك كتب العديد من الرحالة الأوروبيين وسجلوا شهادتهم عن حالة العلوم التجريبية في الجزائر.

أما عن الإجازات، وهي شهادات على الكفاءة العلمية، وتقابل شهادات التخرج التي تمنح اليوم في مختلف مراحل التعليم مع الفارق، وهي شهادة من الشيخ لطالبه على تمكنه من علم أو فن أو عدة علوم، وعلى اطلاعه واستيعابه

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص - ص 351 - 352.

لأهم الكتب وحفظه للمتون، وهي شهادة تسمح لحاملها بالانضمام لسوق العمل المرتبط بالعلم الديني كالتدريس والخطابة والإفتاء والقضاء.¹

حفلت مصادر الفترة بعشرات الإجازات التي أوردها أصحابها، وهي تعطينا صورة دقيقة عن العلوم والمقررات التي كانت تعتمد آنذاك، كما أنها تضعنا في صورة نوعية الشهادات التي تعتمد للاستدلال على مستوى التكوين العلمي للشخص، فعادة ما تتضمن عرضا واسعا عن أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، والتعريف بالشيخ الذي منحها، وبطالب العلم وأهم الكتب التي أخذها و أهم المتون التي حفظها، إضافة إلى مدى اجتهاد الطالب ومواظبته على حلقات الدرس، والمدة التي قضاها مع شيخه للحصول، وأهم المعارف المحصل عليها كما تحدد له المستوى الذي بلغه المجاز وأهم رحلاته في طلب العلم وأماكن ترحاله، ثم تختتم بجملة النصائح والمواعظ، التي يقدمها الشيخ لطالبه لتكون له نبراسا تمكنه من الارتقاء في سلم طالب العلم.²

تعطى الإجازات عادة شفويا أو كتابة، وهي من حيث المضمون تجمع بين الأسلوب النثري والشعري، وبسبب الانهيار العلمي الذي لحق لعصر فإنها قد تصادفنا إجازات لم يجلس فيها الطالب إلى شيخه وإنما أرسلت إليه، مما كان يثير حافظة بعض العلماء وعلى رأسهم الشيخ الفكون الذي استهجن في كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" مثل هذه الظواهر، التي تفقد الإجازة أهميتها.³

¹ حول الموضوع أنظر: محفوظ رموم: "سوق العمل أو الوظائف الإدارية والعلمية في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة المؤرخ العربي، يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد 17، لسنة 2009، ص 231 وما يليها.

² للإطلاع أنظر إجازة الشيخ الورززي لعبد الرزاق بن حمادوش في: ابن حمادوش: مصدر سابق، ص 37.

³ عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت 1987، ص 93.

في نهاية هذا المبحث نلخص فنقول أن الطابع الديني كان السمة الغالبة على العلوم قبل 1830م ومن ثم كانت أساليب وطرائق التعليم مستمدة من التعليم الديني الذي انطبعت به الحضارة الإسلامية، ومن ثم كانت المقررات الدراسية هي الأخرى مستنسخة من أمهات الكتب التي ظهرت في القرون الأولى لهذه الحضارة.

ثالثا: أهم المخرجات العلمية للمؤسسات التعليمية قبل 1830م: حفلت المكتبات في مختلف القطر الجزائري بكم هائل من المخطوطات والكتب التي ألفها علماء الجزائر قبل 1830م، في مختلف العلوم والفنون، وبغض النظر عن اختلاف الآراء التاريخية حول قيمة هذا المنتج ثقافيا وعلميا، إلا أنه يضعنا في صورة وواقع الحركية الثقافية داخل المجتمع الجزائري، ومدا الإسهام الثقافي للعقل الجزائري آنذاك.

1- العلوم الشرعية: انطبع الاهتمام الثقافي في المجتمع الجزائري بغلبة العلوم الدينية بسبب اقتصار مؤسسات التعليم على مراكز العبادة من مساجد وزوايا والتي انتشرت في كل المناطق في مقابل قلة المؤسسات التعليمية العلمانية، والتي اقتصر على بعض المدن الكبرى. وقد كان حظ العلوم الشرعية وافرا، فكل الجهود العلمية آنذاك، انصببت عليه تخصصا وتأليفا، حيث عرفت مختلف الفروع الدينية كالدراسات القرآنية والحديث والفقهاء ودرجة أقل العقائد اهتماما كبيرا.¹

اشتهر علماء منطقة القبائل بنبوغهم في فن القراءات، وقد اشتهر في التأليف في هذا العلم كل من محمد الغراوي وأحمد بن توزنت وأحمد بن ثابت، أما تدريس علم التفسير فقد كان شائعا في كل المراكز الدينية والتعليمية، حيث

¹ محفوظ رموم: الثقافة والمتأقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1518_1830م) دراسة تاريخية أنثربولوجية، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور كمال فيلاي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003، ص 41.

ازدانت حلقات العلم في المساجد والزوايا بحلقات تفسير آيات الكتاب الكريم، وقد اجتهد المدرسون في شروحهم اعتمادا على تفاسير السابقين، وقد اشتهر في هذا الفن الشيخ عيسى الثعالبي والشيخ عمر الوزان، وقد تركا تفسيرا كاملا للقرآن، أما الشيخ أحمد البوني الذي عاش في الفترة الممتدة بين 1653 و 1726م، فقد شرح بعض آيات القرآن في كتاب سماه "الذر النظيم في فضل آيات القرآن العظيم"، ومن المتأخرين فسر الشيخ أبوراس الناصر القرآن في كتاب عنوانه "التيسير إلى علم التفسير"¹.

وفي دراسات علم الحديث، اعتنى الجزائريون بكتاب البخاري، حتى قيل أنه ينافس الاهتمام بعلم القرآن، ومن أشهر مدرسيه العالم أحمد المقرئ، وعيسى الثعالبي صاحب رجز "مضاعفة ثواب هذه الأمة"، و أحمد قاسم البوني، الذي خلف ست مؤلفات في هذا العلم، والمفتي سعيد قدورة، وعبد العزيز الثميني صاحب المختصر وحاشية على مسند الربيع بن حبيب، وعبد الرحمن المجاجي صاحب التأليف الكبير المعروف بـ "فتح الباري في ضبط ألفاظ الأحاديث"، والتي اختصر ابن أبي جمرة من صحيح البخاري.²

أما علم الحديث رواية فنجد مؤلف "كنز الرواة"، و"إتحاف ودود وإسعاف بمقصد محمود" لعيسى الثعالبي، في حين كثرت المؤلفات في علم الإسناد، حيث ترك معظم الشيوخ ثبتهم وكراسات مروياتهم، من ذلك "لب أفيافي في تعداد أشياخي" للشيخ أبوراس الناصر، و"جامع الأصول المنيفة من مسند أبي حنيفة" لمحمد بن أحمد الشريف، و "فهرسة الإسناد" لعبد الرحمن بن إدريس.

وفي مجال الدراسات الفقهية فقد عرفت اهتماما في اتجاهات ثلاث، أحدهما الفقه المالكي والآخر الفقه الإباضي والثالث الفقه الحنفي الذي انتشر مع دخول الأتراك إلى الجزائر. وأبرز مؤلفات المذهب الأول على سبيل الذكر لا

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 2، ص، ص 14، 17، 18.

² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 2، ص 29.

الحصر، والتي غطت مختلف مسائل الفتوى والفرائض والفتاوى نجد الشيخ
الونشريسي صاحب "النور المقتبس من قواعد مذهب مالك بن أنس"، والعالم عبد
الكريم المغيلي، وسعيد قدورة الذي ترك مجموعة من الشروح، ومحمد بن الحاج
التلمساني من أهل القرن الثامن عشر ومؤلف "ياقوتة الحواشي على شرح الإمام
الخراشي"، وأبوراس الناصر، و"رسالة الصلوات" لابن الترجمان المتوفى سنة
1771م، و"الروض البهيج بالنظر في أمور العزوبية" لمصطفى رمضان
العنابي، وأشهر المدارس تلمسان ومازونة ومدرسة قسنطينة والعاصمة وخنفة
سيدي ناجي،¹ وأما الشروح على مختصر خليل فهي أكبر من أن نحصيها.

في حين كانت المؤلفات الفقهية على المذهب الثاني تغطي منطقة ميزاب،
ولعل مؤلفات العالم الكبير عبد العزيز الثميني قد غطت على ما سواها خاصة
موسوعته "النيل" وشفاء الغليل" والمستدرك الذي وضع عليه والذي أسماه
"التكميل بما أخل به كتاب النيل".² واشتهرت أسرة ابن العنابي في الفقه الحنفي
فلابن العنابي كتاب "شرح ذر المختار"، ولمحمد بن محمد فتاح (القرن 18م)
"أرجوزة في الفرائض" وكتاب "تحفة السلوك" و"منهاج السلوك".³

وفي مجال علم الأصول فإن تواضع مستوى العلماء جعل التركيز على
الفروع لا الأصول، ولذلك عز العثور على تأليف في هذا العلم إذا استثنينا
"مباحث الاجتهاد" للراشدي، ورسالة في الانتقال من المذهب لمصطفى باشش
تارزي، و"قاصي الوهاد في مقدمة الاجتهاد" لأبي راس الناصر.⁴

¹ محفوظ رموم: المرجع السابق، ص 137.

² وكتاب "النيل" مطبوع سنة 1972، وقد حققه العالم الكبير الشيخ محمد أطفيش.

³ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية،
بيروت، ط2، 1980، ص 280.

⁴ محفوظ رموم: المرجع السابق، ص 139.

وفي مجال الدراسات العقائدية ومن رواد هذا العلم الشيخ محمد البوزيدي، ومن أهم من ألف في العقائد العالم سعيد قدورة الذي ترك لنا "شرح على العقيدة الصغرى للسنوسي"، والشيخ الوزان صاحب "شرح على العقيدة الصغرى للسنوسي"، والشيخ الورتلاني الذي وضع "شرح على العقيدة الوسطى للسنوسي"، والشيخ يحيى الشاوي الذي ألف "شرح على العقيدة الكبرى للسنوسي"، والشيخ عبد الرزاق ابن حمادوش الذي ترك "شرح على العقيدة الكبرى للسنوسي"، والشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري صاحب "المنظومة الجزائرية"، وكتاب "النور والأسرار النورانية" للعالم الثميني الإباضي، والذر اليمين في تحقيق القول في صفة التكوين لابن الترجمان.¹

2- علوم اللغة والأدب: اهتم الجزائريون بالدراسات اللغوية، خاصة منطقة القبائل التي ذاع صيتها وأصبحت قبلة للطلاب من الداخل والخارج، وبالأخص مدرسة بجاية التي تخرج منها أكبر علماء الجزائر في اللغة أمثال الشيخ بلقاسم بن محمد البجائي من أهل القرن 17م، صاحب "شرح شواهد القطر والشذور"، ومحمد بن يحيى البجائي من أهل القرن 17م صاحب "شرح لامية الأفعال"، ومحمد صالح الزواوي (ت 1827م)، صاحب "ميزان اللباب في قواعد البنا والإعراب" و"شرح الأجرومية"، وقد اعتمد علماء اللغة على النحو في تلقين دروسهم اللغوية على حسب قول ابن مريم نقلا عن محمد الحاج المناوي.²

وأهم مؤلفات النحو والصرف، وأشهر ما وصلنا "شرح ألفية السيوطي" و"شرح لامية الأفعال" للنحوي محمد الزجاجي، و"فتح المولى في شواهد الشريف أبي يعلى الزواوي" و"شرح مخارج الحروف من الشاطبية" و"فتح الهادي بشرح المجراي" لعبد الكريم الفكون الحفيد، كما برز محمد بن بدوي صاحب

¹ عادل نويهض: المرجع السابق، ص 62.

² ابن مريم: المصدر السابق، ص 266.

"الارتضاء في الفرق بين الضاد والطاء"، والمفتي علي بن عبد القادر صاحب "إتحاف الألباب بفصل الخطاب".

بينما ظل إنتاج علم العروض أقل أهمية حيث نجد "الرايات السمهرية في شرح القصدة الخزرجية" لبركات بن باديس، وشرح أبو القاسم البجائي عليها، و"شرح المنظومة الخزرجية على الرامزة الشافية في علمي العروض والقافية" للمفتي سعيد قدورة.¹

واقصر التأليف في البلاغة على كتاب الأخضرى "الجوهر المكنون"، والذي أصبح مرجعا وضع عليه اللغويون العديد من الشروح، كشرح عبد الكريم الفكون وشرح محمد الثغيري، وشرح علي بن محمد الفودي، إضافة إلى "التحقيقات الإعجازية بشرح نظم العلاقات المجازية" للعالم محمد بن محمود العنابي.

اتسمت حركة التأليف في الفنون الأدبية بقلة الإبداع، فإضافة لعمل محمد البوني المعروف باسم "مختصر شرح لامية العجم"، برز كذلك في الشروح الأدبية كل من أحمد بن سحنون الراشدي صاحب "الأزهار الشقيقة المتصوعة بعرف العقيدة"، وهي شرح على قصيدة المديح المعروفة بالعقيدة لسعيد المنداسي والتي كتبها بالعامية، إضافة إلى شرح الشيخ أبوراس الناصر، الذي أسماه "الذرة الأنبيقة في شرح العقيدة"، والذي أبان فيه على قدرته الأدبية، بدليل أنه ترك لنا عملا آخر سماه "الحل الحريرية في شرح المقامات الحريرية، أما فن المقامات فأبرز ما وصلنا "المقامة الهركيلية" لابن حمادوش.²

يبقى أن نشير إلى أن الإنتاج الضخم للشعراء الجزائريين آنذاك كان بسيطا، بالرغم من بقاء مؤثرات المدرسة الأندلسية في الشعر، والتي ظلت تلقى ببعض ظلالها على هذا النوع من الأدب.

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص 166.

² ابن حمادوش: المصدر السابق، ص 164.

3- علم التصوف وآداب السلوك: غلب على العصر الحديث ظاهرة التصوف وسيادة الطرق الصوفية، التي انتشرت بقوة في الجزائر، التي ضمت بين ربوعها معظم الطرق المعروفة كالقادرية والشاذلية والرحمانية والتيجانية، إضافة إلى الطرق التي دخلت مع الأتراك كالمولوية والبكتاشية.

حظي علم التصوف باهتمام كبير فقد ألف محمد الجزائري "الذر المعنوي في شرح الحزب النووي" و"استجلاب المسرات بشرح دلائل الخيرات"، وخلف أحمد بن مالك قصائد صوفية في رثاء الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، أما أحمد بن يوسف الملياني الذي يعد أحد أعلام هذا الفن فقد ترك لنا أكثر من مؤلف أهمها "رسالة في الرقص والتصفيق والذكر في الأسواق"، أما عبد الله ابن عزوز فقد نسب إليه كتاب "كفاية التلميذ المحتاج" و"إظهار البدع وإرهاط المبتدعة"، و"المنهاج في الرد على من ابتدع في الدين ما ليس فيه"..¹

وضع الشيخ عيسى البطيوي كتابه "مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح"، وكما ألف الشيخ أحمد بن ساسي البوني كتابه "فتح القادر في بيان الطريق إلى المريد"، ورسالة "قمع المرئي بنفع المرئي"، أما قصيدة "حزب العارفين" لموسى اللالتي فقد خصها محمد بن سليمان بن الصائم بشرح كبير جمع إلى جانب التصوف والمرئي والمناقب والمكاشفات، وأخرى عن الحالة السياسية والاجتماعية.¹

وفي مجال الأوراد فإن لكل طريقة أذكارها، ومن هذا الإنتاج نذكر "رسالة القصد إلى الله" لأحمد بن عباس، و"رسالة الدعاء إلى الله" لطاهر بن زيان، و"حياة القلوب" لمحمد بن سليمان بن الصائم، و"تفسير الحسام" لابن مريم، إضافة إلى كتاب "قوت الأرواح في عمارة الملوك وأوراد الصباح

¹ أبو القاسم سعد الله: "كعبة الطائفين مخطوط جزائري من القرن 17م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7-8، لسنة 1977، ص 61.

والمساء".¹ وفي مجال المناقب فقد وضعت نظم وأشعار ورسائل في الشيوخ أبرزهم الشيخ محمد يوسف السنوسي والشيخ أحمد بن يوسف الراشدي، في حين ترك الشيخ التوجيني كتابا حول مناقب بعض من أسماهم بالكواكب، إضافة إلى نظم محمد ابن المغوفل في صلحاء الشلف، و شرحه المسمى "الفلك الكواكبي وسلم الراقي إلى المراتب".

4- العلوم الأخرى: غلبت الثقافة الدينية على التعليم قبل الاحتلال الفرنسي، ومن ثم قل الاهتمام بالعلوم الغير دينية، فقد أهمل علم المنطق حتى لا تكاد تجد له تأليفا أو ذكرا، وذلك بسبب التدهور الفكري والانحطاط الثقافي السائد، خاصة وأن المنطق من العلوم التي تتطلب اطلاعات واسعة ومعارف عميقة، ولذلك لا نجد للمنطق مكانا سوى في كتب العقائد، ومن أبرز من ترك لنا بعض الكتابات في هذا الفن العالم عبد الرحمن الأخضرى صاحب "السلم المروفق"، والذي نظم فيه دعائم وقواعد المنطق، كما خلف لنا عبد الرزاق بن حمادوش شرحا على مختصر السنوسي سماه "الذرر على المختصر"، إضافة إلى "القول المسلم في شرح السلم" للشيخ أبوراس الناصر، و"تعاضم الموجين في شرح مرج البحرين" للشيخ عبد العزيز الثميني.²

لم يهتم الجزائريون بعلم التاريخ، وذلك بسبب سيطرة الثقافة السطحية، ولم يرق ما كتب إلى مستوى هذا العلم، إذا استثنينا كتاب "فتح الطيب في غصن الأندلس الزّطب" للعالم الكبير أحمد المقرئ، وهو في أجزاء، وقد قسمه إلى قسمين أرخ في القسم الأول فيه للأندلس، وترجم في القسم الثاني لوزيرها لسان الدين بن الخطيب، إضافة لكتاب "العدواني" لصاحبه محمد بن محمد القسنطيني العدواني، الذي أرخ فيه للقبائل والأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاصرها،

¹ أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1985، ج1، ص 155.

² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص، ص 150، 153.

إضافة لكتب التراجم ككتاب "البستان" لابن مريم، وكتب الرحلات كرحلة الورتلاني، ورحلة عبد الرزاق بن حمادوش، ورحلة ابن عمار.¹

انعدم الاهتمام بالعلوم التجريبية، حيث إهمال السلطة للعلم لم يكن ليتمكن المجهود الفردي لتطوير هذا النوع من العلوم، التي كانت تحتاج بحكم صعوبة التمكن من قواعدها إلى سياسة تعليمية وإمكانيات متطورة، ولذلك لم يبق من هذه العلوم سوى نفحات من العهد الحفصي والزباني.

ألف في الفرائض الأخضرى "الذرة البيضاء" تناول فيه الحساب والفرائض والقسمة العلمية والتركات والموارث، وألف ابن حمادوش "فتح المجيب في علم التكعيب"، وكتابا في صناعة القنابل، حيث أجرى تجارب ميدانية كما أخبر بذلك.² وفي علم الفلك والرياضيات ترك سحنون بن عثمان "السراج"، وابن حمادوش "فتح المجيب في علم التكعيب".³ أما علم الطب وفروعه فقد اندثر، وقد غلب عليه بقايا الطب التقليدي والسحر والشعوذة وكتابة التمايم، ولذلك عز فيه التأليف سوى كتاب ابن حمادوش "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"، وموسوعة "الجواهر المكنون من بحر القانون"، وكتاب "كشف الرموز"، والذي جمع فيه طرق التداوي بالأعشاب والنباتات، إضافة إلى "ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة" لابن عزوز، و"المن والسلوى" لمحمد بن أحمد الشريف، و"المنهل الروي" للشيخ عبد اللطيف، إضافة لمؤلفات أحمد البوني في الوقاية منها "مبين المسارب للأكل والطب مع المشارب"، وفي الأدوية والذي سماه "إعلام القريحة في الأدوية الصحيحة".⁴

¹ محفوظ رموم: المرجع السابق، ص 164.

² عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص 245.

³ عبد الرزاق ابن حمادوش: المصدر السابق، ص 265.

⁴ محفوظ رموم: المرجع السابق، ص 170.

بعد هذا العرض الموجز نصل إلى حقيقة مفادها أن المجهود والعطاء الثقافي الجزائري قد توزع على مختلف العلوم الدينية والصوفية ومختلف العلوم والفنون الأخرى مع قلنتها، ومع أن تنظيمه وتبويبه مازال جاريا ويحتاج لجهد أكاديمي لفرز غثه من سمينه ولإعادة قراءته قراءة واعية تعطي محتواه بعده الحقيقي، إلا أن هذا المنتج إجمالاً، لم يكن سوى نسخا وتحشية وشرحا لمؤلفات السابقين.

إن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال كان للجميع، وهذا ما أكدته إيفون توران قائلة "إن لم يكن جميع الأطفال قد تعلموا القراءة والكتابة، فإنهم قد ذهبوا جميعاً إلى المدرسة، وكانوا يستطيعون استظهار الأدعية وبعض آيات القرآن، لقد كان لجميع القبائل والأحياء الحضرية معلم مدرسة قبل الاحتلال".¹

خاتمة.

بعد هذا العرض حول حالة التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، نصل إلى خلاصة مفادها أن التعليم في الجزائر اصطبغ بالصبغة الدينية، وكان بدائياً في مناهجه التي لم تتطور خلال الفترة حيث كانت متوارثة من العصور الوسطى، كما أن السلطة التركية الحاكمة لم تهتم بالعلم ولا بمؤسساته، حيث لم نجد سياسة تعليمية واضحة، إلا ما كان منها ضمن مشاريع الخير النابعة من الواجب الديني، ولذلك ظل التعليم قائماً على جهود الأفراد والمؤسسات الوقفية، التي لعبت دوراً في دعم قطاع الثقافة والتعليم بمؤسساته وكوادره، هذا الإهمال هو من كان وراء بساطة التعليم في مناهجه وأسلوبه، واقتصاره على العلوم الدينية، وحتى الأخيرة انحصرت التأليف فيها على اجترار ما سبق إنتاجه واكتفى علماء الفترة بالشروح على الشروح والحواشي على المتن، وهذا ما أدى إلى تبسيط الثقافة الجزائرية.

¹ إيفون توران: المرجع السابق، ص 135.

لعبت في المقابل مؤسسة الأوقاف دورا أساسيا في دعم التعليم الديني، وفي إحياء الثقافة الجزائرية واستمرارها، وبذلك قامت الثقافة العلمية بمختلف مؤسساتها على سواعد أفراد المجتمع الذين كان في اعتقادهم أن التعليم أساس الدين، في حين لم تعر سلطة البايلك اهتماما جليا في دعم مؤسسات التعلم، أو العناية بالعلماء، وخلق الظروف الجيدة لتطوير قطاع التعليم بشكل خاص، والثقافة بشكل خاص.

انتشرت المؤسسات التعليمية قبل الاحتلال الفرنسي بمختلف أطوارها الابتدائي والتكميلي وبدرجة أضعف الثانوي والعالي، وقد كان يرتادها العديد من الطلبة والأساتذة، على الرغم مما وجه لها من انتقادات حول مستوى التعليم ونوعيته.

الأرشيف:

1. دفتر صالح باي، مركز أرشيف ولاية قسنطينة، ص-ص 33-38.
2. الرسالة رقم 42، الملف 2، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2305 مجموع.

المصادر والمراجع:

1. بن أعراب كلثوم: خطاب الإصلاح والنهضة في القرن التاسع عشر حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي نموذجا، مذكرة ماجستير، تحت إشراف الدكتور احميدة عميراوي، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 2003/2002.
2. بلحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1981.
3. بوعيايد محمود: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ / 15م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
4. توران إيفون: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغنة، مراجعة و إشراف مصطفى ماضي، وزارة الثقافة، الجزائر 2007.

5. الحفناوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1985، ج1.
6. حليمي عبد القادر: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، دار الفكر الإسلامي، ط1، الجزائر 1982.
7. ابن حمادوش عبد الرزاق: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال المعروفة برحلة ابن حمادوش الجزائري، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983.
8. خوجه حمدان بن عثمان: المرأة، تق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975.
9. دودو أبو العيد: الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830-1855، وزارة الثقافة، الجزائر 2007.
10. رموم محفوظ: الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1518_1830م) دراسة تاريخية أنثروبولوجية، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور كمال فيلالي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003.
11. رموم محفوظ: "الرحلة العلمية: دراسة في التأثير الثقافي للجالية الجزائرية بالمشرق خلال العهد العثماني"، مجلة الشهاب الجديد، مؤسسة ابن باديس قسنطينة، العدد 7، لسنة 2008.
12. رموم محفوظ: "سوق العمل أو الوظائف الإدارية والعلمية في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة المؤرخ العربي، يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد 17، لسنة 2009.
13. زهرة زكية: "المؤسسة التعليمية في الجزائر أثناء الفترة العثمانية"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م، ج1.
14. سعد الله أبو القاسم: "بعض التحولات في مسيرة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م، ج1.
15. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ط1، ج1.
16. سعد الله أبو القاسم: "كعبة الطائفين مخطوط جزائري من القرن 17م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7-8، لسنة 1977.
17. سعيدوني ناصر الدين: دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
18. سعيدوني ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني: الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.
19. سعيدوني ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ج 2.

20. سعيدوني ناصر الدين: "مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية بلاد القبائل نموذجا"، مجلة بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، م.أ.ت.ف.ث.أس، اسطنبول، 2000م.
21. صالح الصالح: "الدور الاقتصادي والاجتماعي للقطاع الوقفي"، مجلة العلوم الإنسانية، منشورات جامعة محمد خيضر بيسكرة، العدد 8، لسنة 2005.
22. صبحي حسان: النظام التربوي الاستعماري 1830-1962، رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر 2005.
23. الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت 1987.
24. قدور عبد المجيد: "الهجرة الأندلسية في المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائر نموذجا"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد 20، لسنة 2003.
25. كاثارت: مذكرات أسير الداوي كاثارت قنصل أمريكا في المغرب، تر إسماعيل العربي، دار المنشورات الجامعية، الجزائر 1982.
26. مجموعة مؤلفين: أشغال الوقف في العالم الإسلامي: أداة سلطة اجتماعية وسياسية، تقديم راندي ديليم، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية (I F E A)، دمشق 1995م.
27. مذكور إبراهيم: معجم العلوم الاجتماعية، البعثة القومية للتربية والعلوم الثقافية (اليونسكو)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.
28. -المدني أحمد توفيق: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791م) حروبه أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
29. ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
30. ابن ميمون محمد: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائرية المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
31. نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر 1989.
32. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 2، 1980.

32_Abert devoux; les édifices religieux de l'ancien Alger, Revue Africaine, pub O P U, N 6, A 1862.

34_Boyer Pierre; la vie quotidienne d'Alger a la veille de l'intervention française, Paris 1963, p 73.